أنوار السُّنَّة المُحمديَّة
شرح رياض الصالحين (٧)
باب الصبر (٢)

الشيخ أحمد السيد.

عطاء
البناء المنهجي

الفهرس

المقدمة: ٣

ضرورة دراسة الدين بشموليته: ٣

قصة الغلام والملك والفوائد المستخرجة منها: ٥

الحديث السادس: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ..." ٥

الفائدة الأولى: السحر والكهانة من أساليب الملوك في تطويع الرعية وتخويفهم..... ٥

الفائدة الثانية: الإخبار بخلاف الحقيقة مباحٌ في حالات..... ٦

الفائدة الثالثة: الأسلوب الذي اتبعه الفتى في الاستهداء إلى الحقّ. ٦

الفائدة الرابعة: الابتلاء هو نتيجة الأفضلية في الدّين والكرامة. ٧

الفائدة الخامسة: الجمع بين هذه القصة وبين حديث النبي ﷺ لخباب رضي الله عنه. ٨

الفائدة السادسة: منطقُ الطغاة والمجرمين على مرّ التاريخ. ٩

الفائدة السابعة: أهمية فهم صفات المجرمين. ١٠

الفائدة الثامنة: صفات الكفار والمنافقين المذكورة في القرآن ساريَةٌ في كل زمان ومكان ١١

الفائدة التاسعة: مجالس النبي ﷺ غنية بالقصص والفوائد التي لم تُعلَم من قبلُ. ١٣

الفائدة العاشرة: تلقي النبي ﷺ بمعاني الوحي وتثبيت قلبه بها. ١٣

الفائدة الحادية عشر: انتشار الحقّ الذي حاربه الملك عند ثلاثة أنفار إلى كلّ المدينة. ١٤

الفائدة الثانية عشر: تغليب نصرة الدين ولو أدى إلى تلف النفس. ١٥

الفائدة الثالثة عشر: انتصار الحقّ بارتفاع كلمته ولو كانت المعايير الدنيوية تشير إلى الهزيمة. . ١٥

الفائدة الرابعة عشر: نفسيّة الطغاة في تصنيف أنفسهم على أنهم أعلى من البشر..... ١٧

الفائدة الخامسة عشر: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ١٨

الفائدة السادسة عشر: مآل الطغاة وجنودهم. ١٩

الفائدة السابعة عشر: جنود الطغاة يبيعون آخرتهم بدُنيا غيرهم. ١٩

الخاتمة: ٢١

المقدمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيّاكم الله.

الحمد لله ربّ العالمين، وصلِّ اللهم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين. اللّهمّ لك الحمد لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد.

هذا مجلسٌ جديدٌ من مجالس: الاستهداء بالسنةِ النبوية. والكتاب الذي جعلناه طريقًا لهذا الاستهداء هو: (كتاب رياض الصالحين). ونحن لا نزال اليوم في أوّل الأحاديث، **وقد بدأ الإمام النووي –رحمه الله– بباب الإخلاص، ثم باب التوبة، ثم باب الصبر**. وعندنا اليوم حديثٌ في باب الصبر، وهو حديثٌ طويل، وعظيم، وجميلٌ، ومفيدٌ كثيرًا، وفيه قصةٌ عظيمةٌ من قَصص الأمم السابقة.

وقبل أن أبدأ بالحديث؛ أذكّر بِعُنوانِنا: الاستهداء بالسنة. والتركيز في قضية الأحاديث النبوية على هَدِي النبي ﷺ: ماذا كان يعمل؟ على ماذا كان يُرَكِّز؟ بأيّ شيءٍ كان يبدأ؟ كيف كان يُبلِّغ؟ بمَ كان يهتم؟ إلى أي شيء كان يدعو؟ هذا هو المحور الذي نتتبعهُ وندور حولهُ في كل قراءة الأحاديث النبوية التي ندرسها في هذه المجالس وشرحها.

ضرورة دراسة الدين بشموليته:

قبل أن أبدأ بحديثِ الغلام، الذي فيه قصّة الغلام والساحر المعروفة، أقول: إذا كنا نتكلم عن الاستهداء بالسُّنَّة، فأوّل فائدةٍ أريد أن أذكرها هنا هي: **أن الموضوعات التي كان يتناولها النبي ﷺ مع أصحابه مُعلِّمًا مُرشدًا هي موضوعاتٌ متنوعة، والدين دينٌ شاملٌ ذو موضوعاتٍ كثيرة**؛ فمَن يطلُبُ العلم ويطلب الفقه في الدين، ولا يدرس الدين بشموليته وشمولية موضوعاته كما كان النبي ﷺ يقدمه شاملًا في مختلف موضوعاته فسيظل فِقهه في الدين ناقصًا، ولو حفظ عشرات المتون، ودرَس مئات الشروح.

الدين ليس موضوعًا واحدًا، ولا يصلح أن تكون علاقتنا معه مثلًا بِعلمِ الفِقه فقط، أو بعلم العقيدة فقط، أو بعلوم القرآن والتفسير فقط!

الدين –يا جماعة– موضوعاتٌ كثيرة، والقرآن نفسه موضوعاته كثيرة، وواحدةٌ **من الموضوعات الأساسية والمهمة المذكورة في القرآن، والتي كان الرسول ﷺ يعتني بتربية أصحابه عليها: هو ما يتعلق بقَصص الأمم السابقة: قَصص الأنبياء، وقصص الصالحين، وأحوال الأمم، وما إلى ذلك**. ولأجل ذلك؛ فلا بدّ لكلِّ داعيةٍ، أو مُربٍّ، أو مُصلحٍ يريد أن يتبع النّبيَّ ﷺ في دعوته أن يراعي هذه الشمولية، فيعلّمَ طلابه مختلف الموضوعات والقضايا.

هنا، أريد أن أنبِّه إلى شيء: كلّ ما سبق ينطبق على إذا كان الشخص عربيًّا يستطيع أن يفهم هذه الموضوعات المتنوعة، ولكن –يا جماعة الخير– أمة الإسلام اليوم ذات ألسُنٍ، وليست صاحبة لسانٍ واحد، على عكس حالها في وقت النبي ﷺ إذْ كانت أمّةً عربيةً، أو ذات لسانٍ عربيّ. لكن اليوم، الأمّةُ الإسلاميةُ واسعةٌ وممتدة، والعجم منها أكثر من العرب، وغير المتحدثين بالعربية أكثر من المتحدثين بالعربية. وإن من النقص الكبير الذي يقع فيه كثيرٌ من غير المتحدثين بالعربية من أمّةِ محمد ﷺ، أنه يكون بينهم وبين علوم الإسلام حاجزٌ وحائلٌ حقيقيّ، وأن من يتوجه منهم إلى طلب العلم فللأسف يجدون أنّ كثيرًا ممّن يُدرِّس العلوم الشرعية لغير العرب أو لغير الناطقين بالعربية لا يُدَرِّسون إلا علومًا محدودةً بقوالبَ محدودةٍ معيّنةٍ، وقد تكون أحيانًا صارمةً، وناشفةً وجافةً!

بينما **من أعظم وأهم ما ينبغي أن يُربَّى عليه المسلمون جميعًا، سواءً من يتحدث منهم باللسان العربي أو لا يتحدث منهم بهذا اللسان: هو المعاني المتنوعة، ومن أهمها: معاني الصبر، والإيمان، والثبات، والإخلاص**... وأن يتعلموا: هَدي الأنبياء، وسبيل المرسلين، وقضية الدعوة والإصلاح، ومعاني القرآن، وما إلى ذلك... قبل أن يتعلموا قواعد النحو والصرف.

ونحن نلاحظ في كثيرٍ من الأحيان أنّ مَنْ يُدرِّسون غير العرب العلوم الشرعية يُدرِّسُون النحو والصرف دراسةً قواعديةً أكثر مما يدرسها العرب بكثير! ثمّ إذا قرأ الفاتحة لم يعرفْ معانيها! لكنّك إن أُعطَيتَهُ كلمةً، وسألتَه: ما جذر هذه الكلمة؟ أو: أعطِني تصريفها، أو قَلِّبها... فسيجيبك بالتفصيل؛ لأنّه دَرَسَها!

ولذلك؛ هذه دعوةٌ لكل من يُعلِّم الدين، سواء أكان من العرب أو من غيرهم: الدين شامل، وموضوعاتُهُ كثيرةٌ، ولسيت القضيّة مُجرّدَ مُتونٍ وقواعد في العلوم الشرعية، وكأنّها مادّةٌ جامِدة؛ بل إنّ أهمّ ما يُعلَّم من الدين هو: الإخلاص لله، والعبودية له، وأعمال القلوب، وأحوال الأنبياء، وقضيّة التزكية، ومعاني الصلاة، وما إلى ذلك من الأمور...

قصة الغلام والملك والفوائد المستخرجة منها:

الشاهد: هذه قصةٌ قصها النبي ﷺ على أصحابه، وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يَقُص على أصحابه، كما أن الله –سبحانه وتعالى– كثيرًا ما قصَّ على نبيِّه قَصَصًا من أحوال الأمم السّابقة.

الحديث السادس: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ..."

وعن صهيب –رضي الله تعالى عنه– أنَّ رسول الله ﷺ قال: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِك: إِنِّي كَبِرْتُ فَابعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فأَعْجَبهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِب وَقَعَدَ إِلَيْه، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِر فَقُلْ: حبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ".

الفائدة الأولى: السحر والكهانة من أساليب الملوك في تطويع الرعية وتخويفهم

بمعنى: كبر الساحر، فأراد أن يُوَرِّثَ الصنعة لمن بعده؛ حِفاظًا على هذه الصنعة الخطيرة التي كثيرًا ما كانت تُستعمل لتخويف الناس، وحِفظ سلطان الملوك. وأنتم تَعلمون أن من أعظم ما كان يستند إليه فرعون، ويعتضد به، ويعتز به هو: السحرة والكهنة. وكان يُخوف الناس بذلك. وهذه سُنّةٌ متّبَعَةٌ لدى الملوك الذين لا يخافون الله، يكون لديهم من وسائل تخويف النّاس ما لديهم؛ فمِن جُملة ذلك: استعمال السحر والكهانة، وغير ذلك من الأمور...أراد هذا الساحر أن يُوَرِّثَ هذه الصنعة لهذا الغلام؛ حتّى يكون بعده. وبلا شكٍّ، ما دام الملكُ قد اختار للسّاحر غلامًا من بين الرّعية، فهذا يعني أنّ هذا غلامٌ

لديه من المؤهِّلات، والقُدراتِ، والمواهب الشيء الذي يستحق أن يُختار ويُنتخب لأجله؛ ليكون الساحرَ الأكبرَ للملك.

الفائدة الثانية: الإخبار بخلاف الحقيقة مباحٌ في حالات.

كان من قدَر الله ورحمته أنه جعلَ في طريق هذا الغلام راهبًا، فكان هذا الراهب -وهو عابدٌ صالح- يُرشِدُ هذا الغلام، فكان يتأخر عنده، فإذا تأخر عنده فأتى للسّاحر متأخرًا؛ ضربه. ولما اشتكى الغلام من ذلك، قال له الراهب: "قُل حبسني أهلي". وهذا إخبارٌ بخلاف الحقيقة، والأصل أنّ الإخبار بخلاف الحقيقة مُحرَّمٌ في مختلف الأحوال، غيرَ أنّه قد يُباح في بعض الأحوال. **ومن جملة الأحوال التي يُبَاح فيها: في حال الإكراه أو الضرورة**، أي: حين يضطر الإنسان؛ أي: الإنسان الذي لا يستطيع أن يدفع ظَالِمًا تسلَّط عليه، أو على ماله، أو على نفسه، أو على أهله إلّا بأن يُخبِرَه بخلاف الحقيقة، فهُنا له أن يخبره بخلاف الحقيقة؛ حتى يتخلص من ظلمهِ، وسطوته، وكيدهِ، وبطشهِ.

وكذلك إذا كان كلامه يمكن أن يخلّص غيره؛ لأن الظالم قد يتسلط عليه، أو يتسلط على غيره من طريقه. فهنا، كما فعل هذا الغلام، وكما أرشده إليه الراهب، فإنه يجوز للإنسان أن يدفع الضرر والشر عن نفسه، إذا لم يكن هناك سبيلٌ إلَّا بذلك.

الفائدة الثالثة: الأسلوب الذي اتبعه الفتى في الاستهداء إلى الحقّ.

"فَبيْنَما هو على ذلكَ إذْ أَتَى علَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقالَ: اليومَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟".

من الواضح أنّه خلال هذه الفترة التي كان الغلام يتعلم فيها من الراهب، لمْ يقطع بعدُ أيهما أفضل؛ فكان هو في مرحلة تعلمٍ. في نفس الوقت، وفي نفس اليوم، يتعلم من الساحر، ويتعلم من الراهب، وهو غلام. فلما رأى ذلك الموقف الغريب: دابّةٌ كانت في الطّريق كانت، ويبدو أنّ هذه الدّابّة شيءٌ كبيرٌ ومتوحش، وقطعت طريق الناس، وَجَدَ هذا الغلام فرصةً أن يستهدي بالله -سبحانه وتعالى- طالبًا منه أن يُبيِّنَ له الحق: أيهما أقرب رشدًا؟ أيُّهما أهدى سبيلًا: ألسّاحر أم الراهب؟

"فأخَذَ حَجَرًا، فَقالَ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِن أَمْرِالسَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِه الدَّابَّةَ حتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ".

هذا الدعاء بهذه الطريقة: اللهم إن كان كذا وكذا حقًا، فاقضِ بكذا، أو اقتل كذا، أو مثل هذه القصة... هذا الأسلوب في الدعاء لا شكَّ أنّه أسلوبٌ جائزٌ، وهو أسلوبٌ ممَّا يُهتدى به إلى الحق، ولكنّه لا ينبغي أن يكون مسلكًا دائمًا يسلُكُه الإنسان في كل دعائه؛ فالأصل أن الإنسان يطلب الله –سبحانه وتعالى– طَلَبًا مُباشِرًا، وإنَّ الله لا يتعاظمه شيء، فيقول: اللهم اغفر لي، اللهم أعطني، اللهم ارزقني، اللهم اكفني، إلى آخره... ولكن أحيانًا، قد تَلتبس الأمور والأحوال، أو تشتدُّ الكروب والخطوب على الإنسان بطريقةٍ قد يحتاج فيها إلى مثل هذا الدعاء، والله –سبحانه وتعالى– يُجيب دعاءَ الإنسانِ سواء أكان بالأسلوب المعتاد: الطلب المباشر، أو كان بهذا الأسلوب، أي القول: إن كان كذا فكذا.

وقد يُري اللهُ –سبحانه وتعالى– عبدَه من كرامةِ إجابة الدعاء ما يريه، فيجعل هذا الإنسان لنفسه آيةً ومعلمًا من معالم الخير.

الفائدة الرابعة: الابتلاء هو نتيجة الأفضلية في الدّين والكرامة.

إذن، فهذه كرامة. فلمَّا حدثت هذه الكرامة، رجع الغلام إلى الراهب: "فأتَى الرَّاهِبَ فأخْبَرَهُ، فَقالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي؛ قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى...". الآن سيخبره بنتيجةِ هذه الأفضلية، ونتيجةِ هذه الكرامة، وهي نتيجةٌ فيها فقهٌ عظيمٌ في الدين، وفيها فقهٌ عظيمٌ في سنن الله سبحانه وتعالى، وهذه النتيجة يجب أن يَفقهها الطلاب، والعالمون، والعاملون، والمصلحون، والدعاة، والآباء، والأمهات... كلُّ من يسير في طريق الخير، وخاصّةً في طريق نصرة الدين، وفي طريق الإصلاح، فيكرمه الله بأشياء، فإنّ نتيجة ذلك غير متوقَّعة بالحساب الشخصي العادي، ولكنها نتيجةٌ متعلقةٌ بسنن الله، سبحانه وتعالى. باللهِ اسمعوا الجُملة: يقول له: "أيْ بُنَيَّ، أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي؛ قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ سَتُبْتَلَى".

"وإنّك ستُبتَلى": **هذه النتيجة!**

قد يظن أحدهم أنّه بالعكس: بما أنّك أفضل مني، وبما أن الله أكرمك بهذه الكرامة، وبما أن الله أجاب دعاءك؛ فأبشِر بالعِزِّ، والنصرِ، والتمكين، وسَعَة العيش، والرغد، وإلى آخره... كلّا، بل قال له: "وإنَّكَ سَتُبْتَلَى"! **وهذا هو ميزانُ مَن يفهم سننَ الله سبحانه وتعالى.**

قال: "وإنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأَدْوَاءِ". وهذه كرامةٌ أعطاهُ اللهُ –سبحانه وتعالى– إيّاها.

"فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كانَ قدْ عَمِيَ، فأتَاهُ بهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقالَ: ما هَاهُنَا لكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فإنْ أَنْتَ آمَنْتَ باللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ باللَّهِ تَعَالَى، فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى. فأتَى المِلِكَ فَجَلَسَ إلَيْهِ كما كانَ يَجْلِسُ، فَقالَ المِلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غيرِي؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فأخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الغُلَامِ، فَجِيءَ بالغُلَامِ، فَقالَ له المِلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ! فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا؛ إنَّما يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى. فأخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الرَّاهِبِ. فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى، فَدَعَا بالمِئْشَارِ، فَوَضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ."

الفائدة الخامسة: الجمع بين هذه القصة وبين حديث النبي ﷺ لخباب رضي الله عنه.

هذا يذكرنا بالحديث الذي قاله النبي ﷺ لخباب –رضي الله عنه– لما جاءه فقال: "شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ" [صحيح البخاري]، هذا الحديث الذي يُخبِرُ النبيّ ﷺ فيه خبابًا –رضي الله عنه– بأنّ: هناك ممَّن كان قبلكم، ممَّن كان يوضع المنشار على رأسه، فيفرق باثنتين، فهذا أحدُهُم؛ لأنّ هذا كان ممّن قبل النبي ﷺ.

الفائدة السادسة: منطقُ الطغاة والمجرمين على مرّ التاريخ.

سؤال: لماذا شقّ الملِكُ الرّاهبَ إلى نصفين بالمنشار؟ لماذا هذا التعذيب؟! ألمْ يكن الراهب معتزلًا، مُتفرِّغًا للعبادة والذِّكر؟

ما الذي يَضير الملكَ أن يبقى الراهبُ في عبادتهِ، وخشوعهِ، وإخباتهِ، وقنوته، وصلاحه؟ وما الذي يضره لو استفاد منه بعض الناس، وعلِموا أنّ الله -سبحانه وتعالى- هو الحق؟

والجواب: أنّ أمور الطغاة والمجرمين لا تُقاس أبدًا بالحسابات المنطقيّة العقلية، فلا تقِسْهَا بالقول: والله، يا أخي، ما كان يجب أن يفعل كذا. الطُّغاة والمجرمون دائمًا ما يكون لهم منطقٌ مختلفٌ: منطقُ البطش، منطق القمع، منطق إهلاكِ الجميع، منطق: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولا تظنوا أن هؤلاء المجرمين والطغاة الذين تحدث عنهم النبي ﷺ، أو ذكرهم الله في القرآن، ومَن سار على طريقهم، لا تظُنُّوا أنهم حين يفعلون ذلك فإنّهم لا يُزَيّنون هذا الفعل ببعض المبرِّرات والتبريرات التي تخفف هذه القضية؛ ففرعون مثلًا -وهو فرعون- كان يقول عن موسى، عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، يخاف مِن موسى -عليه السلام- أن يُظهِر في الأرض الفساد، وهو نفسه من يذبح الأطفال! وكذلك هذا الملك يُضيرُه أنّ هناك من يقول: هناك ربٌّ غير الملك. وهذا لا يُقبَل في منطق الطغاة والمجرمين، فلا بدّ من استئصال واجتثاث هذا الدين.

وبعضُ الناس يظنون أن اعتداء المجرمين، والظالمين، والطغاة على المسلمين، أو المصلحين، أو الصالحين إنما هو بِسبَبِ خوفِهم منهم مثَلًا؛ مِنْ أن يُهدِّدوا سلطتهم السّياسية مثلًا، أو غير ذلك. ولكنّ القضية ليست كذلك بالضرورة، بل يتحمّل ذلك المجرِم هذا الوِزرَ؛ لأنّه ينظر بعينٍ مختلفة، فليس بالضرورة أن يكون في الأمر تهديدٌ عليه، بل قد تكون عظُمَتْ عليه نفسُه حتى لم يعُد يرضى إلّا بأن يكون البقيةُ أذِلّاءَ له. فإذا وجد من هو عزيزٌ، ومن هو خارجٌ عن هذا الخضوع وهذا الذل، فإنه لايرضى، وقد لا

ينام من الهم، والأرق، والقلق: أن يوجد من يعبد الله وحده لا شريك له، ويعتز بدينه وهويته، ولا يخضع لهذا المنطق الإجرامي!

الفائدة السابعة: أهمية فهم صفات المجرمين.

ولأجل ذلك؛ كما أن علينا أن نفهم صفات المؤمنين والأخلاق الحميدة، فإن الله يريد منا أن نفهم صفات المجرمين.

ألم يقل الله، سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]؟

ألم يتحدث الله عن صفات المنافقين بالتفصيل: في سورة البقرة، وفي سورة التوبة، وفي سورة النساء، وغيرها... وأنزل سورةً باسمهم؟

ألم يتحدّث الله عن كيد أهل الكتاب، ومكرهم، ووسائلهم، وكيفية حِجاجهم، وشبهاتهم التي يطرحونها في آياتٍ كثيرةٍ جدًا في سورة آل عمران وغيرها؟

ألم يتحدّث الله -سبحانه وتعالى- عن اليهود، وخططهم، ووسائلهم، ومكرهم، وأدواتهم في سورة البقرة في آياتٍ كثيرة؟

ألم يتحدث الله -سبحانه وتعالى- عن المشركين في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه؟

لماذا، وهو القرآن: كلام الله، أفضل كتابٍ نزل على الأرض، على خير رسول، وهو الكتابُ الخالدُ في هدايته إلى يوم القيامة؟

لماذا يكون فيه حديثٌ كثيرٌ عن شرِّ الناس وأسوأهم؟

لماذا لا يكون فيه الحديثُ فقط عن الله -سبحانه وتعالى- وعن المؤمنين الصّالحين، وعن الجنة والنار مثلًا؛ حتى لا يعصيَ الإنسان ربه، وعن الأحكام الشرعية؟

لماذا يكون فيه بيان سبيل المجرمين؟

ذلك لأنّه لا يمكن للإنسان المؤمن أن يستقيم استقامةً حقيقيةً إلا إذا فقِه هذه السبل التي يسلكها المجرمون؛ لأنه لا يخلو زمنٌ منهم.

لا يخلو زمنٌ من المجرمين، وإذا لم يعرف الإنسان سُبُلَ المجرمين، وطريقهم، فإنه قد يتأثر بهم، وإن كانت نيته حسنةً. ولأجل ذلك؛ **إن كنا نريد فعلًا جيلًا مصلحًا، فلا بدَّ أن نربيه على أن يكون جيلًا واعيًا، خاصّةً وأننا في زمنٍ أدوات التأثير فيه وأدوات الإعلام، بل وحتى المنطلقات الفكرية التي تربى عليها كثيرٌ من الناس منذ القرن الماضي، إنما هي آتيةٌ من سبل المجرمين:** الاستعمار، والاستشراق، وما تبع ذلك من تأثيرات، إلى آخره... وتأثيرها متواصلٌ بدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا حتى اليوم.

ويوجد أيضًا منافقون كما تحدَّث الله –سبحانه وتعالى– عنهم في القرآن. فلا يصلُح أن تكون صفةُ الإنسانِ المؤمن المستقيم أنه: مُغفَّل! وأمّا الناس الواعون المهتمّون بالفكر هم الناس الذين تجدهم خارج دائرة طُلّابِ العلم مثلًا! أمّا إذا دخلتَ دائرة طلّاب العلم، تجد الدّاعية المسكين المغفّل!

وفي الواقع، يكون هذا الكلام صحيحًا أحيانًا، فتجد الداعية مُغفّلًا فعلًا؛ لأنه لم يتعلّم ما يجب أن يتعلّمه، فظنّ أنّ الدِّين هو أن تتعلّم بعض الأحكام والمواعظ، وانتهى! ثمّ إذا أتى بعد ذلك كيدُ الكائدين وكيد المجرمين، لم ينتبه له الإنسان! **ولا أملَ في الإصلاح ولا في عز المسلمين، إلّا إذا كان المصلحون، والعاملون، والدعاة، والمؤثرون في الناس تحتَ سِياق الدّين والإسلام على وعيٍ كبيرٍ، وفهمٍ، وإدراك.**

ومن لا يفقه ذلك؛ فهو حقيقةً لا يفقه كتاب الله –سبحانه وتعالى– الذي فيه كثيرٌ هذه الصفات وهذا البيان.

الفائدة الثامنة: صفات الكفار والمنافقين المذكورة في القرآن ساريَةٌ في كل زمان ومكان .

قد يقول أحدهم: ولكنّ القرآن فيه ذكرٌ لصِفات المشركين، أو الكفار، أوالمنافقين الذين كانوا في زمنٍ مُعيَّنٍ، فماذا عن الأزمنةِ اللاحقة، سواءً على مرِّ التّاريخ أو حتى في الزمن المعاصر؟ فما العلاقة بين الأمرين؟ فأقول: الفكرة أنّ اللهَ –سبحانه وتعالى– يُبيِّنُ في القرآن أنّ مَنطِقَهم واحدٌ على مرّ الأزمان،

فليست الفكرةُ في الأشخاص والأعيان، بل في القلوب التي تحمل هذه المعاني الإجرامية الظالمة. ولذلك؛ قال الله –سبحانه وتعالى– بعد أن ذكر قوم نوح، وذكر قبلَهم فرعون وجُندَه، وذكر عادًا وثمود، وبيّن أحوالهم، سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ...﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

كانوا كلّما يأتيهم رسولٌ يقولون نفس الجملة، فهل تواصَوْا به؟! هل تواصتْ كلّ هذه الأمم فيما بينها أن تقف نفس الموقف وأن تقول نفس الكلام؟! فتجيبُ تَكملة الآية عن هذا السؤال: ﴿... بلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]. ولذلك؛ قال الله –سبحانه وتعالى– في سورة البقرة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة: ١١٨]، فالإشكال في تَشابه القلوب، وهذا التشابُه مستمرٌّ إلى يوم القيامة.

ولذلك؛ يجب أن يتعلمَ أبناءُ المسلمين سبيلَ المجرمين، وطريقهم، وحيَلهم، ومكرهم، ودسائسهم؛ حتى يكون المسلم واعيًا، ويمتثل قوله ﷺ الذي أخرجه الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– في صحيحه، قال فيه ﷺ: "لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين". قال الخطابي رحمه الله: "هذا خبرٌ يراد به الأمر"؛ أي: **لا ينبغي أن يُلدَغَ المؤمنُ مِنْ جُحرٍ واحدٍ مرَّتَيْن.**

الشاهد: أنّ الملك شَقَّ الراهبَ باثنتين، فوقع شِقَّاه، لا بمنطقٍ: العقل، أو المصلحة العامة، أو المصلحة الخاصة، وإنّما بمنطق الطُّغيان والإجرام، لا أكثر!

ثمّ جيء بالوزير، قال النبي ﷺ: "ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المِلكِ فقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ فأبَى، فَوُضِعَ المِئْشَارُ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ به حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا به الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وإلَّا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا به الجَبَلَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَرَجَفَ بهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إلى المِلكِ، فَقالَ له المِلكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تعالى. فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ..." والقرقور: مِثلُ القارب أوالسفينة الصغيرة، "... اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ وَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ، فإنْ

رَجَعَ عن دِينِهِ، وإلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا به، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ؛ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى. ثمَّ قالَ لِلْمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به، قالَ: وما هُوَ؟ قالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي علَى جِذْعٍ..." أي: تضع خَشَبَةَ صَلْبٍ، فتُعلِّقَني عليها، "ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذلكَ قَتَلْتَنِي. فجَمَعَ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ علَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبْدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: باسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ، فَمَاتَ" يقول: **الصُّدغ: ما بين العين إلى شحمة الأذن.**

الفائدة التاسعة: مجالس النبي ﷺ غنية بالقصص والفوائد التي لم تُعلَم من قبلُ.

قبل أن نعلّق على ذلك المشهد، أنا أتخيّل مشهدَ الصحابة -رضي الله عنهم- وهم يستمعون القصة من النبي ﷺ، وهو يقول لهم ما حدث، وهم يسمعون هذه القصة لأوّل مرةٍ! كيف كان الصّحابةُ -رضي الله عنهم- يجلسون في مجلس النبي ﷺ، فيحدّثهم مرّةً عنِ الجنة، ومرّةً عن النار، ومرّةً عن قصص الأمم السابقة، ومرةً عن موسى عليه السلام، ومرّةً تنزل الآيات، فيتلوها عليهم ويستمعونها! ومرّةً يُحدّثهم عن الأدب، ومرة عن تعبير الرّؤيا: "مَنْ رَأَى مِنكُم رؤيا..."، إلى آخره... فكان الصّحابة -رضي الله عنهم- لما يأتون إلى مجلس النبي ﷺ كلّ يوم، لا يدرون بمَ سيخرجون في ذلك اليوم مِنَ الموضوعات، والأشياء الجميلة، والفوائد المتنوعة... ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]!

شيءٌ جديد، لا يعلمه أحد! قد يقول أحدنا: تعلّمنا ذلك في المدارس، درسنا كذا، أخذنا في التحفيظ، نعلم بعض المعلومات... فإذا سمِعناها مرةً ثانيةً في الدّروس مثلًا، نجد أنّ عندنا معلومات مُسبَقة، لكن تخيّل أنّ هذه أشياء تُسمَع لأوّل مرّة من النبي ﷺ.

الفائدة العاشرة: تلقي النبي ﷺ بمعاني الوحي وتثبيت قلبه بها.

بل قبل أن نُفَكِّرَ في تلقِّي الصحابة -رضي الله عنهم- لهذه المعاني، نُفكِّر في تلقّي النّبيّ ﷺ نفسِه لهذه المعاني مِنَ اللهِ تعالى، وهو يَسمَعُه لأوّل مرّةٍ، والله -سبحانه وتعالى- كان يكرر على نبيه هذا المعنى.

- فيقول له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

- ويقول له: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

- ويقول له: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمكُرُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

- وقال له، سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

- وقال له: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٤٥].

- وقال له: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

- وقال له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ... ﴾ [القَصص: ٤٦]...

هذه الآيات تتكرر، فـ: ما كنت، ما كنت تعلمها، وما كنت لديهم... والنبي ﷺ يتلقى بدوره هذه المعاني، فعندما تنزل عليه هذه المعاني، يَثبُتُ فؤاده هو نفسه ﷺ بها، كما قال الله، سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، أي: يُثبِّتُ اللهُ فؤادَ النّبيّ ﷺ بهذه الحقائق، وهذه الأخبار، وهذه الأمور، وهذه العلوم... ثم يقصُّها النبي ﷺ على أصحابه فتشرق قلوبهم ونفوسهم بهذه العلوم، وبهذه المعاني، وبهذه المعارف.

الفائدة الحادية عشر: انتشار الحقّ الذي حاربه الملك عند ثلاثة أنفار إلى كلّ المدينة.

الشاهد: أرشد الغلام إلى هذا الفعل، فكانت نتيجته: "فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام". هذا الملك شقَّ الراهبَ بالمنشار؛ لأنّه هو وحدَه لمْ يخضَعْ للملك في عبوديته، ولأنه أثَّر على شخصٍ واحدٍ

فقط، فقال: ربِّيَ الله! لم يعملوا شيئًا أكثر من ذلك، فلم يتآمروا على الملكِ، أو غير ذلك، وإنما قالوا: ربُّنا الله. ولم يخضعُوا للمَلِك!

كانا اثنين، وثالثُهما الغلام، ففعل المِلك ما لا يُفعل، وعمِلَ ما لا يُعمل؛ فقط لأجل هؤلاء الثلاثة؛ فصار أهل المدينة كلهم يقولون: "آمنَّا بِرَبِّ الغُلام"! "فَأُتِيَ المِلِكُ فقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ؛ قدْ آمَنَ النَّاسُ".

الفائدة الثانية عشر: تغليب نصرة الدين ولو أدى إلى تلف النفس.

هذا الغلام تسبَّبَ في قتل نفسه، فقد أرشدَ المِلِكَ إلى الطّريقة التي يقتُلُه بها، وهو يعلم أنّه حين يُقْتَلُ بهذه الطريقة فسيؤدّي ذلك إلى إيمان الناس. فأخذ بعض العلماء من هذا: قضية تقديم المصلحة العامة التي يُنصر بها الدين والإسلام، ولو أدّت إلى تلَف النفس.

الفائدة الثالثة عشر: انتصار الحقّ بارتفاع كلمته ولو كانت المعايير الدنيوية تشير إلى الهزيمة.

لكن ها هُنا معنًى آخر، وهو سؤالٌ مهمّ أيضًا: هل انتصر الغلام أم انهزم؟ وكيف يكون انتصر، وقد مات؟ بل ولم يمُت موتةً عاديّةً، وإنما مات بأن أصيب بسهمٍ في وجهه، وقد يكون تألّم، ونزل منه الدّم، بل ومن الطبيعي أن يكون نزف إلى أن فاضت رُوحه! فكيف انتصر؟ ولماذا انتصر؟ وبناءً على ماذا نقول إنّه قد انتصر؟

أهمُّ نقطةٍ يجب أن نذكرها حين نقول هذا: أنّنا لا نناقش هنا قضيّة: هل فاز في الآخرة أم لم لا؟ فكلُّنا متَّفِقون على أنّه فائزٌ في الآخرة، **لكنّ السؤال هنا: هل انتصر في الدنيا أم لم ينتصر؟ والجواب أنّه: انتصر؛ لأنّ دعوَتَه ظهرت ظهورًا كُسِرت به لا شوكةُ الأعداء، بل: كلمة الأعداء**. فليس بالضرورة أن تُكسَر الشوكة؛ فلا يتعلّق النّصرُ بالشوكة فقط، وإنما **أهمُّ مِنَ النّصر بالشوكة: النّصر المتعلق بكلمة الحق على كلمة الباطل**.

فالشّوكة تبَعٌ للكلمة، ولذلك؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٢٣]، هذا الظهور على الدين كله ظهورٌ بنوعين: بالسِّنان وباللسان، أي:

بالسّيف، وبالحُجة والقرآن. وكلاهما اسمه جهاد، كما قال الله –سبحانه وتعالى– في كتابه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ... ﴾ أي بالقرآن– ﴿... جِهَادًا كَبِيرًا﴾ر [الفرقان: ٥٢].

وقال ابن حزم مُعلِّقًا على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٢٣]، قال: "**وَقَدْ تُهْزَم الْعَسَاكِرُ الْكِبَار، وَلَكِن كلمةَ الْحَقّ لَا تُهزم**". ولأجل ذلك؛ لا ينبغي لنا أن نفرح نحنُ المسلمون، إذا وُجد أناسٌ من المسلمين قد صارت لهم كلمةٌ دنيويةٌ، أو تمكُّنٌ دنيويٌّ ما، وهم مسلمون بشكلٍ عام، ولكنّ كلمةَ الحقِّ في تَمكُّنهم مُنخفضةً، فليس هذا شيئًا يُفرح به.

وبعكس ذلك، إذا كانت كلمةُ الحق مرتفعةً، فإن أي خسارةٍ دنيويةٍ، أو في مقاييس الكرِّ والفرِّ والنصر والهزيمة المادية: ولو كان الأمر مُتخلِّفًا من هذه الجهة ولكنّ كلمة الحق مرفوعة، فإنّ هذا يُسمّى نصرًا!

ولذلك؛ وبكل ثباتٍ ويقينٍ ووضوحٍ، نقول مطمئنين: إن السحرة الذين قتَلهُم فرعون، وصلبهم، وقطَّع أيديَهم وأرجلهم مِنْ خلافٍ انتصروا على فرعون. ولا نقول إنهم انتصروا لأنهم ثبتوا على الحق، فهذا أمرٌ ثانٍ، ولا نقول إنهم انتصروا لأنّهم سيدخلون الجنة، فهذا أيضًا أمرٌ مختلف، بل نقول: إنّهم انتصروا على فرعون؛ لأنّه ظهر لكل الناس أنّهم يحملون كلمة الحق، وَعلَت هذه الكلمة أمام الجميع، وخضَع لها الجميع. ثمّ بعد ذلك، إذا بقي الأذى في الجسد، فهذا أمره سهل، ما دام أنه في الدنيا.

لكن المصيبة كل المصيبة: أن تكون كلمة الحق مُنخفضةً، والباطل منتشرًا، وكلمتهُ عاليةً، والفساد، والفِسق والفجور والإجرام، وتحريف الدين هو السائد، وهو الذي يُخدم بالإعلام وفي كل مكان، ثمّ بعد ذلك نقول: الحمد لله، نحن بخير وبعافية؛ لأنّ اقتصادنا جيّد، ولم تنخفض قيمة عُملَتِنا، وإلى آخره...

الجميع يفرحون بالاقتصاد الجيّد، لكنَّ هذا وحدَهُ لا يكفي، فلا بدّ أن تكونَ كلمةُ الحقّ هي العالية، والظاهرة، وهي الكلمة التي لا تُغلب من كلمة الباطل. أمّا إذا حورِبت كلمةُ الحق وأُبْعِدَت، واستُجلبت كلمة الباطل ومُكِّنت، فلا فائدة من أيِّ خُطوةٍ أو نصرٍ دنيويٍّ يُحقَّق.

هذا إذا كنا نتكلم بمعيار الوحي: أنْ لا فائدة؛ لأنّ الحرب كلَّها حربُ معايير، فإذا كان معيارُك هو ما أنزل الله، فإنّ أيّ تمكينٍ دنيويٍّ مَعَ عُلوِّ كلمة الباطل لا يُعتَبَر تمكينًا، ولا نصرًا، ولا فيه أيّ فائدة. هذا إن كان معيارُك هو الوحي؛ أما إن فَسَدَتْ معاييرُك؛ فصار معيارُك هو المعيار الدنيوي، فبطبيعة الحال لن تُدرِك هذه المعاني، ولن تستوعب أن هذا ليس نصرًا.

لذلك؛ فسؤال: من انتصر، ليس في الآخرة، بل في الدّنيا، الغلام أم الملك؟ جواب هو: الغلام. وأمّا لو كان الغلام قد أسلم بدون أن يعلم الملك بأمره، ثمَّ تُوُفِّيَ وفاةً طبيعيةً، فإننا نقول إنّه فاز في الآخرة، لكنّه لم ينتصِرْ في الدّنيا.

فالنّصرُ في الدنيا ليس مجرَّد أن تموتَ مُسلِمًا، بلْ أن ترتفع الكلمة ورسالة الحقّ التي تعيش لأجلها، وتكسِرَ رسالةَ الباطل وكلمةَ الباطل، ولا يضرُّها تخلُّف جسدِك عنها. فلو سقط الجسد وبقيت الرسالة، فهذا اسمه نصرٌ في ميزان الله. وهذا أهمّ درسٍ نستفيده من حديثِ الغلام، ومن أهمّ الدروس التي نستفيدها من قصّة السحرة مع فرعون.

الفائدة الرابعة عشر: نفسيّة الطغاة في تصنيف أنفسهم على أنهم أعلى من البشر.

إذن، بما أنّهم آمنوا كلّهم، ورأى الملكُ الآياتِ بنفسه، ورأى هذا الفتى الذي لم يمت إلّا بعد أن قالَ: "بسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلَامِ"، وعلم النّاس بالمعادلة الواضحة: أنّه لما قال: "بِسمِ الله ربّ الغُلام" قتله، ثمّ سمع منْ لم يُشاهد المشهد بعينه بما قد حصل، وتناقل الناس الأخبار، فعلم الجميع أنه ما قدر عليه إلا لما قال: "بسم الله ربِّ الغلام"، فصار الأمر واضحًا: أنّه لا يقدِرُ عليه إلّا "الله ربّ الغلام"، في حين أنّ هذا الملك يُقدِّم نفسَه على أنّه هو الرّبّ المِلك!

إذن؛ فالعقل، والمنطق، والقلب، والنفس، والروح، وكل شيء يقول إنّ الغلام على حق، "فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ". وما دام المِلِكُ بَشَرًا كبقيّة الناس، كان يجب أنْ يؤمنَ مثلهم؛ لأنّهم كلّهم بشرٌ، وكلّهم أناسٌ، ولكلٍّ منهم قلبٌ، وعقلٌ، ومخٌّ، وعينان!

لكنّ هذا ليس سوى اعتقادك أنتَ أنه بشرٌ، وكلّنا نعتقد أنّه بشر، لكنّه هو في نفسه لا يتعامل مع نفسه أنه هو بشرٌ عادي! ولا أحدَ في منطق الطّغيان والإجرام يعامل نفسَه كبَشَرٍ عاديٍّ! لسان حاله: أعوذ بالله، بشرٌ عادي؟! كيف يُقال إنّني بشر عادي؟! ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، هكذا كان يقول فرعون: ائتوني بشخصٍ عنده مُلك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحته! لا يوجد!

كذلك قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، انتهى النقاش: أنتم كلّكم كذا، وهذا كذا، أما أنا فمختلف!

وطبعًا، لا يقتصر هذا المنطق على الطغاة السابقين للنبي ﷺ، بل هذا منطقٌ واحدٌ عند كلّ المجرمين والطّغاة والمتكبرين، فكلهم يتعاملون بهذا المبدأ: أنا أخضع للحق؟! لماذا؟! أتراني بشرًا مثلك؟! لماذا أخضع أنا للحق؟! ولو قلت له مثلًا: الحقُّ هنا، وهنا نصرة المظلوم، ولا يصلُح أن تعمل كذا... لردّ: هذا منطقك أنت، أنت ضعيف، أنت مسكين، أنت فقير! ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]! هذا منطقهم دائمًا على مرِّ التاريخ!

الفائدة الخامسة عشر: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

لذلك؛ بدلَ أن يتّبع سبيل الذين آمنوا وقالوا آمنّا بربِّ الغلام، "فأمَرَ بالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ فيها النِّيرَانَ، وَقالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عن دِينِهِ فأقحِمُوهُ فِيهَا، أَوْ قيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمعهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقالَ لَهَا الغُلَامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فإنَّكِ علَى الحَقِّ". أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وهذه الحادثة حادثةٌ عظيمة، أنزل الله فيها قرآنًا يتلى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ١-٨]. وها قد سمعتم القصّة، ورأيتم أنّهم فعلًا ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾!

الفائدة السادسة عشر: مآل الطغاة وجنودهم.

وها قد عرفنا المِلِكَ، ولكنّ الذي خدَّ الأخاديد، وحفرها، وأضرم فيها النيران هم جُنوده! وكذلك لم يكن فرعون هو الذي يُمسك السّكّين ليذبحَ الأطفال، بل جنوده، الذين ما كانت لهم من فائدةٍ من ذبح الأطفال إلّا خدمته! وكذلك ما كان جنود الملك يستفيدون مِن حفر الأخاديد وإضرام النيران فيها إلا خدمته! فأين فرعون وجنوده الآن؟ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]! وهذا الملك الذي حفر الأخدود وجنوده أيضًا تحت التراب الآن، وكذلك كلّ مَنْ عمِل مثلَ عملهم في التاريخ!

الفائدة السابعة عشر: جنود الطغاة يبيعون آخرتهم بدُنيا غيرهم.

لِنقُلْ: إنّ الملك قد استفادَ الفائدة الكُبرى: أنه أثبت مُلكَه وحقق مجدَه الشّخصيّ... فماذا سيستفيد هذا الجنديّ المسكين الذي كان يأتي ويذهب؛ ليذبح الأطفال، ويرمي الناس في النار؟! هذا الذي يقول فيه من يقول من العلماء: **"وَأَخْسُرُ النَّاس صَفْقَةً من بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ"**!

ويومَ القيامة، لن يعذر اللهُ ﷻ هؤلاء الجنود الذين كانوا أعوانًا لهؤلاء المجرمين! بل وكثيرًا ما قصَّ علينا في كتابه ﷻ الحوارَ الذي يجري في النار بين الطّبقة العليا المستكبرة صاحبة القرار، وبين الطبقة التابعة لها المنفِّذة، الذين كانوا يسعَوْنَ في الحرّ وفي الشمس، ويصعدون الجبالَ، ويكدّون في الحياة؛ خدمةً لأولئك، ولكنهم سيكونون في النار كلُّهم! حوارات كثيرةٌ، ذكرها الله -سُبحانه وتعالى- في القرآن: في سورة سبأ، وفي سورة الأعراف.

وقال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]، وذكر ذلك في سورة غافر أيضًا.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

وفي سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ ...﴾؛ هؤلاء المساكين الذين كانوا مجرد تَبَعٍ! ﴿... لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وسبحان الله، دائمًا ما يُكون هؤلاء، وكأنهم قد نُزعت منهم عقولهم ونُزعت منهم شخصياتهم! فهُمْ تَبَعٌ، يفعلون كلّ ما يُريدُ الظالم المجرم! ولذلك؛ مَنْ كان منهم فيه بقيّة خيرٍ فلْيتّقِ الله، ولْيحذرْ، ولْينتبِه، فلن ينفعه ظالمٌ، ولن ينفعه مجرمٌ، ولا يدوم مُلكٌ إلا مُلك الله سبحانه وتعالى، ولْيحذرْ أن يكون ممّن قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]!

أنت إنسانٌ، لديك عقل، ولديك قلب، تعرفُ بهما الحقَّ من الباطل، لا يصلُح أن يخضَع الإنسان لأحدٍ، إلّا الله -سبحانَه وتعالى- خضوعَ من يُطيعه في الأمر والنّهي وفي كل شيءٍ! وغير ذلك لا يصلح، ولا يجوز، ولا ينبغي، ونسأل اللهَ -سبحانه وتعالى- العافية، ونسأل الله -سبحانه وتعالى- العفو.

تتعجّب إذا رأيت هؤلاء الذين كانوا يُرمَوْنَ في هذه النار؛ فيهم أمّ بطفلها الرضيع، فما نفسيّتك -أيّها الجندي- وأنت تُلقي هذه الأمّ، أو تحفر لها هذه الحفرة، وتوقد النار؛ لكي تَرمي هذه الأم؟! لماذا؟! بناءً على ماذا؟! من أجل راتبٍ يأتيك من الملك؟! لماذا تفعل هذا؟! ما الفكرة في ذلك؟!

فهؤلاء هم الذين يحاربون الحق ويُمكِّنون للباطل على مرِّ التاريخ. ولذلك؛ قال الله -سبحانه وتعالى- في سورة القصص:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]، مع أن الذي يأتي بالفكرة ويخطّط لها، ويضع القرارات، ويُصدِر كل شيء، ويستفيد منها فائدةً مباشرةً هما فرعون وهامان، وربّما أناسٌ قليلون مِنَ الملأ؛ أمّا جنودهما هؤلاء فهم مجرّد مُنفِّذِين وأدواتٌ للباطل، والظّلم، والإجرام، وقد ينالون شيئًا من فُتات الدنيا. فنسأل الله العفو والعافية.

الخاتمة:

في هذا الحديث العظيم الذي روى هذه القصة فوائد كثيرة، وفي القَصص فوائد كثيرة دائمًا. وكما قلتُ: كان النبي ﷺ يُربِّي أصحابَه على هذه الموضوعات المتنوعة؛ فيخرج الصحابيّ من المجلس النبوي وقد تعلم شيئًا من الآداب، أو شيئًا من الأخلاق، أو شيئًا من أمر الآخرة، أوشيئًا من المعايير، أو شيئًا من السنة، أو شيئًا من الأحكام، أو شيئًا من المواعظ، أو ما كان غير ذلك مما هو في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فنسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يجزيَ نبيَّه مُحمّدًا ﷺ عن أمّته خيرَ ما جزى نبيًّا عن أُمَّتِه.

ونسأل اللهَ –سبحانه وتعالى– ألّا يحرِمَنا بركةَ سنته، والتّفَقُّه فيها، والعلم بها، وحفظها، والتأمّل فيها، والاستهداء بها.

ونسأل اللهَ –سبحانه وتعالى– أن يجعلَنَا من أهلِ القرآن، العاملين به، الدّاعين إليهِ، القائمين به. ونسأل اللهَ –سبحانَه وتعالى– أن يعفو عنّا، ويعافِيَنا. ونسألُه أن يُعزَّ الإسلامَ والمسلمين.

ونسأله –سبحانه وتعالى– أن يجعلنا من عباده القانتين له، الخاضعين له، الشاكرين له، الحامدين له، المسبحين بحمده، العائدين المنيبين إليه.

اللّهم ربنا اجعلنا لك طائعين، لك مخبتين، لك أواهين منيبين.

اللهم ربنا تقبل توبتنا، وأجِب دعوتنا، وثبِّتْ حُجَّتنا، واهدِ قلوبنا، وسدِّد ألسنتنا، واسلُل سخيمة قلوبنا.

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.